

سوسيولوجيا الأدب : (النشأة و التطور)

سعيدة تومي (*)

abstract :

Sociology of Literature : Origin and evolution The book of the French novelist Mrs. Dèstal , published in 1800 , entitled "Literature in its relationship with the social systems" is the first methodological study in the history of the sociology of literature , which collected the literature and society in one book, confirmed that the literature varies depending on the change of society. Then, the study of Hippolyte Tin has gained great importance in the light of his famous trilogy " environment , time, race ." He confirmed the relationship of literature with all these elements .

After, the Marxist philosophy provided a number of principles in the light of the philosophy of matter is before thinking. it has influenced the theory and reflection that combines this philosophy and sociology. It infers that literature is closely associated with all these elements without the repeal of his artistic specificity.

In light of all these efforts, and in the twentieth century, other efforts have emerged and gathered the historical and social perspectives led by George Lukacs . Lucien Goldman continued in this area by a remarkable style that he collected between structuralism and Marxist view. Finally, Zima presented another development through the crystallization of the linguistic and language researches in favor of the literary phenomenon . So he created another science which concerns sociology text.

ملخص:

يمثل كتاب الروائية الفرنسية مدام دوستال الصادر عام 1800م و المعنون بـ "الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية" أول دراسة منهجية في مسار سوسيولوجيا الأدب ، جمعت الأدب و المجتمع في كتاب واحد ، أكدت من خلاله أن الأدب يتغير بتغير المجتمع ، ثم اكتسبت دراسة هيبوليت تين أهمية كبيرة في ضوء طرحه لثلاثيته المشهورة " البيئة ، الزمن ، العرق " وأكد على صلة الأدب بكل هذه العناصر.

قدمت بعد ذلك الفلسفة الماركسية جملة من المبادئ في ظل فلسفة المادة أسبق من الفكر ، فأثرت بذلك على نظرية الانعكاس التي جمعت بين هذه الفلسفة وعلم الاجتماع ، فخلصت إلى أن الأدب على صلة وثيقة بكل هذه العناصر دون أن تلغي خصوصيته الفنية .

وفي ضوء كل هذه الجهود ظهرت في القرن العشرين مجهودات أخرى جمعت بين النظرة الاجتماعية والتاريخية ترأسها جورج لوكاتش، ليواصل لوسيان غولدمان في هذا المجال بأسلوب متميز جمع فيه بين البنوية والنظرة الماركسية . وأخيراً قدم زيمّا تطورا آخر من خلال بلورة الأبحاث اللسانية و اللغوية لصالح الظاهرة الأدبية ، فأنتج بذلك علما آخر يختص بعلم اجتماع النص .

هناك مقولة تتردد كثيرا عن طبيعة الإنسان فقد قيل إنه اجتماعي بطبعه وقيل أن الإنسان ابن بيئته وانعكاس لتفاعلاتها المختلفة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولعل هذا ما يدعونا للتساؤل حول طبيعة العلاقة بين الأدب

* استاذة مساعدة - ب - ، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة برج بوعريريج.

مصادر (مجلة علمية محكمة) قسم: الآداب واللغات partie: lettres et langues MAAREF (Revue académique) السنة الثامنة (ديسمبر 2014) - العدد (16) 8^{ème} Année (Décembre 2014) N°: (16)

المجتمع ، فهل يمكن عزل فكر الإنسان و خياله عن الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه ؟

إن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة جذرية متماسكة، ولا يتولد فن عموما ولا أدب خصوصا إلا في الجماعة و من أجل الجماعة ، فلا يمكن أن نقول : إن فلانا ينتج فنا ليتمتع به وحده أو يقول شعرا ليسمعه به وحده، ثم من أين يستمد الفنان أو الشاعر انفعاله المبدع ؟

أليس من تجاربه في مجتمعه ؟ وهل يقتبس صوره وقيمه إلا من الثقافة التي تلقاها ؟ كما أنه لا يمكن أن يشعر براحة و رضى إلا عندما يجد من يقرأ شعره ويتمتع به ، ويشاركه انفعالاته وأحاسيسه .

إننا مع هذا لا ننكر أن لكل شاعرا طابعا خاصا يميز شعره عن سواه، وأن لشخصية الأديب وحياته النفسية دورا بارزا في إنتاجه الأدبي، ولكن الأدباء والفنانين هم أيضا أبناء بيئتهم منها يستمدون تجاربهم ، وفيها يشع إنتاجهم ويتدفق إبداعهم، فلا فن ولا أدب إلا في الجماعة ومن أجل الجماعة، ومن ثمة لا يمكن الغوص في أعماق الأدب إلا داخل الإطار الاجتماعي الذي منه ينطلق الأدب وإليه يعود، وهذا موضوع علم الاجتماع الأدبي على الإجمال.

إنّ النظر في العمل الأدبي على أنّه يعكس الواقع الاجتماعي أو الحياة الاجتماعية بكل ما تحمله من تناقضات وآمال و آلام وطموحات ورغبات تعود إلى العصور القديمة جدا ، ويمكننا القول إنها ترجع إلى حكماء اليونان القدماء الذين عبروا عن هذه العلاقة في خطاباتهم الفلسفية والأدبية .

وإذا أردنا الرجوع إلى الوراء بدا لنا أنّ الفيلسوف اليوناني أفلاطون أول ناقد اهتم بالناحية الاجتماعية باعتبارها معيارا لاستحسان الشعر ، فقد طرد الشعراء من جمهوريته الفضلى لأنهم يفسدون الأخلاق ، وأما الذين ينظمون الأشعار لإشعال نار الحماسة في نفوس المحاربين فلهم كلّ التقدير. ⁽¹⁾

هكذا نجد جذور علم اجتماع الأدب في نظرية المحاكاة التي طرحها وطوّرها أرسطو ، فهي تلحح إلى التفاعل و الترابط بين الأدب والمجتمع بتعبير المحاكاة، و رؤيته إلى الفن على أنه محاكاة للمحاكاة استنادا إلى فلسفته المثالية التي ترى أن الوعي أسبق في الوجود من المادة ، لذلك يرى الكون مقسم إلى عالم مثالي وعالم طبيعي محسوس، وهذا الأخير ما هو إلا صورة مشوهة ومزيفة عن عالم المثل الأول، إذن العالم الطبيعي محاكاة للعالم المثالي . ⁽²⁾

فالفنان أو الشاعر عندما يصف شجرة مثلاً فهو يحاكي العالم المحسوس الذي أصلاً محاكاة للعالم المثالي، وما انحصرت نظرية المحاكاة على ما قاله أفلاطون ، وجاء بعده أرسطو، واستخدم المصطلح ذاته الذي استخدمه أفلاطون ، لكنه منحه مفهوماً جديداً عما قدمه أفلاطون، وأكد أنّ الشاعر لا يحاكي ما هو كائن ، وإنما يحاكي ما يمكن أن يكون، فإذا حاول الفنان أن يرسم منظراً طبيعياً ينبغي ألا يتقيد بما يتضمنه ذلك المنظر ، بل عليه أن يرسمه أجمل ما يكون .⁽³⁾ إذن الشعر من وجهة نظر أرسطو مثالي يتم ما في الطبيعة من نقص، كما أشارت نظرية المحاكاة بطريقة أو بأخرى إلى الوظيفة الاجتماعية للأدب فأفلاطون قد طرد الشعراء من جمهوريته خوفاً من تأثيرهم السلبي على المجتمع .

ولكن من المحاولات الرائدة التي حاولت ربط الأدب بالواقع الاجتماعي تعود إلى القرن 18 للميلاد وهي محاولة المفكر الإيطالي جيامبا تيسستا فيكو (1668-1744) في كتابه "مبادئ العلم الجديد" الصادر عام 1725، وفيه ربط بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي، فقام بربط ملاحم هوميروس بالمجتمعات العشائرية، وقال بأنّ الدراما نشأت مع ظهور المدينة، أين يمكن أن تتجمع جمهور المشاهدين، أما الرواية فقد ظهرت مع ظهور المطبعة والورق وانتشار التعليم...⁽⁴⁾ وفيما يخص نظرة فيكو في الربط بين الأنواع الأدبية والواقع الاجتماعي فإنه يأخذ بعنصر الزمن من خلال اهتمامه بالمراحل الحضارية كحديثه عن ظهور الملاحم في المجتمعات العشائرية ثم ظهور الرواية في مجتمع المدينة .

هذا ما يؤكد أنّ النظرة الاجتماعية للأدب ليست وليدة القرن الحالي أو الماضي، وإنما تعود إلى عهد قديم ، فقد وعى الفلاسفة والنقاد ضرورة البعد الاجتماعي للأدب ، غير أنهم لم يصلوا إلى بلورة نظرية نقدية متكاملة قائمة على أسس منهجية وأصول معرفية إلا في القرن 19 للميلاد على أيدي جملة من النقاد والباحثين .

1- مجهودات مدام دوستال (1766-1817):

يتفق معظم الباحثين على أنّ الإرهاصات الأولى للمنهج الاجتماعي في دراسة الأدب ونقده بدأت منهجياً منذ أن أصدرت الكاتبة الروائية الفرنسية مدام دوستال كتابها المعنون بـ "الأدب في علاقته بالأنظمة الاجتماعية" الصادر عام 1800 م، تحدثت فيه عن دور عامل الهوية القومية وعلاقته بالوسط الاجتماعي، وأثرهما في الإبداع والذوق الفني.

يعد هذا الكتاب أول محاولة لجمع مفهومي الأدب و المجتمع في دراسة منهجية واحدة ، وفيه أكدت الناقدة " أنا لا نستطيع فهم الأثر الأدبي وتذوقه تذوقاً حقيقياً في معزل عن المعرفة بالظروف الاجتماعية التي أدت إلى إبداعه وظهوره" (5) وإذا كان فيكون قد اهتم بعنصر الزمان من خلال اهتمامه بالمراحل الحضارية، فإن مدام دوستال قد تقدمت خطوة إلى الأمام في مضمار الربط بين الأدب والواقع الاجتماعي، حيث ترى أن كل عمل أدبي يتغلغل في بيئة اجتماعية و جغرافية ما، كما اهتمت بالبحث في مدى تأثير الدين والعادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير هذا الأخير فيها (6)، فالأدب في رأيها " يتغير بتغير المجتمع ، ويطرده تطوره مع تزايد القدر الذي يحظى به المجتمع من الحريات الفردية العامة، ودليلها على ذلك أن الأدب الفرنسي مثلاً، اكره في عصر ما قبل الثورة على الاتجاه نحو الهجاء والتعبير بمرارة، فكان أفق التاريخ كان أمامه مسدوداً خلافاً لما بعد الثورة، فقد تغير هذا الأدب تغيراً كبيراً نتيجة التغير الاجتماعي، وزيادة نصيب الأفراد من الحرية الشخصية" (7)، وبما أنهذه الحرية الجديدة لم تكن فرنسية فحسب، وإنما اتسعت لتكون أوروبية، فقد شمل التغير الأدب الأوروبي كله بما في ذلك الأدب الإنجليزي والأدب الألماني.

إذن تلخصت مجهودات مدام دوستال في رؤيتها للأدب على أنه يتغير بتغير المجتمعات، ويتبدل بتبدلها، ويتطور حسب تطور الأوضاع الاجتماعية، ومن هنا رأت أنه أصبح من الضروري بعد قيام الثورة الفرنسية (1789) ظهور أدب جديد يعبر عن مجتمع ما بعد الثورة، ويختلف عما كان عليه قبل الثورة ، وصار لزاماً على النقد أن يحول سؤاله من "كيف يكتب الأدباء" إلى "عن ماذا يكتبون" فأرادت من هذه الفكرة أن توجه النقد إلى مسار جديد يهتم بالموضوعات التي تناولها الإبداع أكثر من الاهتمام بفنون الكتابة والبلاغة التي احتلت مساحة كبيرة من كتب النقد القديم .

وبالرغم من هذه المجهودات القيمة لمدام دوستال في تاريخ المنهج الاجتماعي للأدب، إلا أنه قد خطا خطوة أخرى إلى الأمام مع الفيلسوف والناقد هيبوليت تين .

2- هيبوليت تين والاتجاه الاجتماعي (1828-1893):

كان لأبد من الانتظار أكثر من نصف قرن حتى تظهر دراسة أخرى أكثر منهجية وأكثر ضبطاً من الدراسة الأولى، وهي التي قدمها الناقد الفرنسي تين في تفسيره للأدب، وقد تأثر كثيراً بتطورات العلوم المختلفة، فتقدم

بمفهوم النقد الاجتماعي خطوة الى الأمام، وهي محاولة اخضاع الأدب للنظرية العلمية على غرار ما هو قائم في العلوم الأخرى.

استند تين في نظريته الواردة في كتاب "تاريخ الأدب الانجليزي" الصادر 1863م الى اعتبار أن الأدب حصيلة عوامل ثلاثة ، استفاد في تحديدها من الدراسات التي سبقته، وخاصة دراسة فيكوو دوستال، فقد أضاف الى عامل الزمن الذي قال به فيكوو، والعامل الجغرافي الذي قالت به مدام دوستال، عاملا ثالثا هو الجنس أو العرق، ليشكل بذلك ثالوثه المعروف "الوسط، الزمن، الجنس" :

1-2- الوسط أو البيئة *le Milieu* : فالإنسان في بيئته خاضع لأوضاع حتمية هي التي تتحكم بالأدب أو الحياة العقلية للفرد، وبالتالي فالبيئة هي الاطار الطبيعي والاجتماعي الذي يتحرك فيه الأديب، فهناك دائما ترسبات فطرية هي نتيجة لموروثات فردية أو جماعية، جسمية ومزاجية لها أثرها في تكوين الفرد⁽⁸⁾، اذن هناك ترسبات مكتسبة هي نتيجة للظروف الطبيعية والاجتماعية المحيطة بالكاتب، وهي أيضا لها أثرها في توجيه الفرد، وعليه فالعمل الأدبي بلا شك سيتأثر بالعوامل الخارجية المكتسبة .

2-2- الزمن أو العصر: الذي أنتج فيه الأدب، وهو يعني روح العصر أو مكان العمل الأدبي من تاريخ التراث، وربما يعني به ما عبر به شاعر عربي قديم بقوله " لكل زمان دولة ورجال " ، فالزمن هو هذا الامتداد التاريخي الذي يؤثر على تطور الأدب، فبقدر ما هو مكاني هو زمني أيضا ، و الملاحظ أن تين قد نظر الى التاريخ نظرة سكونية أي أن الزمن يؤثر سلبا على تطور الأدب، اذ بنظر الى النتاج الأدبي الأول على أنه ابداع حقيقي، وأن الذي جاء بعده هو تقليد النتاج الكلاسيكي الأصل، وما عداه فمجرد تقليد.

2-3- العرق أو الجنس: والمقصود به الاستعدادات الفطرية التي تولد مع الانسان ، ويكون لها صداها في تكوينه الجسمي والمزاجي أو أنه تلك الخصائص القومية والمقصود بها تلك الحوادث الجسم و الدوافع الغريزية والعناصر الوراثية والملاخ الجسدية ، والتي تختلف من أمة الى أخرى⁽⁹⁾.

إذن كانت هذه الثلاثية المشهورة " الوسط ، الزمن ، العرق " التي اعتمدها تين في دراسته للأدب، ورأى أنه من دون هذه العناصر لا يمكن فهم العمل الأدبي وتفسيره ونقده ، ولقد عرفت هذه النظرية نجاحا بالغا طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولعل السبب يعود الى الطريقة العلمية التي عرض بها

منهجه، غير أنه من الملاحظ أنّ تين قد جعل الأدب بمثابة ظاهرة من الظواهر الطبيعية يسجل بعض الانفعالات المحددة القابلة للمعالجة والاختبار، ويمكن للدارس الأدبي أن يفهم العمل الأدبي ويفسره في ظل هذه الثلاثية، ولكن هل الظاهرة الأدبية تسمح بمثل هذا التعميم في القوانين؟ أليس الأدب ظاهرة فنية؟ أليست الظاهرة الفنية عظيمة بقدر قابليتها لتعدد المعاني ولعشرات التأويلات، مما يجعل انخراطها في قانون عام أمرا مستحيلا؟

إن الظاهرة الأدبية نات طبيعة تخيلية، وهو ما يعني أنه لا يمكن أن تكون مادة تجريبية تخضع لقوانين عامة، و تدخل في قوالب جاهزة تقاس عليها جميع النصوص، وإذا كانت الظاهرة الطبيعية مادة قابلة للملاحظة والقياس والتعميم، واكتشاف قوانينها، فإن الظاهرة الأدبية تخرج عن ظاهرة التعميم والقياس، لتدخل دائرة الفردية والتخصيص، فالعلم تعميم والفن تخصيص، العلم يجمع والفن تفرد.

ثم إن الدارس أو الناقد الأدبي عندما يدرس أدب أديب معين، فهو غالبا لا يهتم اهتماما بالغا بما يشترك فيه ذلك الأديب مع بقية البشر أو مع باقي أدباء عصره، فهو غالبا ما يدرسه لاكتشاف ما تفرد به هذا الأديب، وما يميزه دون سواه.

وهذا ما جعل نظرية تين تنتقد من ناحيتين، أولا من حيث النظرة السكونية للتاريخ الأدبي، وثانيا من حيث جعل الكلاسيكية مثالا تقاس عليه الفنون، كما أنه أهمل أثر الجانب الفردي الخاص بالمبدع. وعلى الرغم مما قدمه الفيلسوف تين إلا أن هذه الآراء تعبر عن الالتفات إلى الصلة بين الظاهرة الأدبية والمجتمع، ولكنها لم تتوصل إلى إدراك علاقة التأثير والتأثر بين الأدب والمجتمع، إلا أن التطور الحقيقي في دراسة الأدب اجتماعيا كان مع ظهور الفلسفة الماركسية التي ركزت على الجانب الاقتصادي في توجيه الفن والأدب.

3- الفلسفة الماركسية والاتجاه الاجتماعي :

الماركسية نظرية في الاقتصاد وضعها كارل ماركس (1818-1883) بمشاركة فودريك أنجلز (1820-1905) في منتصف القرن التاسع عشر، وقد اشتهرت هذه النظرية بالشيوعية، كما أسماها البعض بالتفسير المادي للتاريخ، أما عن نشأة هذه النظرية بتأثير نضال طبقة العمال (البروليتاريا)، حيث ثار العمال في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر في إنجلترا وفرنسا وألمانيا.

تدور الفكرة الماركسية حول محور الأساس الاقتصادي للمجتمع (البنية التحتية) الذي يحدد طبيعة الايديولوجيا والمؤسسات والممارسات (كالأدب) التي

تشكل البنية الفوقية لذلك المجتمع، وبما أنّ الأدب بنية فوقية تعكس الواقع الاجتماعي والاقتصادي للبنية التحتية، إذن لابد من وجود علاقة حتمية مباشرة بين القاعدة والبنية الفوقية، فأىّ تغير في قوى الإنتاج المادية، لابد من أن يحدث تغييرا في العلاقات والنظم الفكرية.

وإذا كان تين قد نظر إلى التاريخ نظرة سكونية، فإنّ الماركسية على النقيض من ذلك، فقد نظرت إليه نظرة حركية، وقد قامت أساسا لتفسير حركة التاريخ، والتحويلات الاجتماعية التي تحكم المجتمع، والتي تؤدي إلى إحداث أفكار وقيم تعبر عن ذلك التحول، وعلية فالماركسية فلسفة اجتماعية، حملت على عاتقها التفسير الاجتماعي والاقتصادي للتحويلات التي عرفتها المجتمعات في محاولة لاستنباط القوانين التي تحكم في هذه التحويلات.

إذن لا ينغزل الأدب عن المجتمع والتاريخ، ولا يكون بناء لغويا مستقلا عن التأثيرات الخارجية. والواقع الاجتماعي في الفلسفة الماركسية ليس خلفية مبهمّة ينبثق الأدب منها، إن له شكلا محددا، وهذا الشكل قائم في التاريخ الذي يعتبره الماركسيون سلسلة من الصراعات بين الطبقات الاجتماعية وبين الإنتاج الاقتصادي.

وبعد أن وضعنا المحور الأساسي للفلسفة الماركسية والمتمثل في البنية التحتية للمجتمع وعلاقتها بالبنية الفوقية، نلقي الضوء على الجوهر العام لهذه الفكرة، وذلك بشرح المصطلحين الذين قامت عليهما:

3-1- قاعدة الصراع الطبقي: ترى أنّ التحويلات الحاصلة عبر التاريخ كان محركها الصراع الطبقي، بمعنى أنّها قد لاحظت واستنتجت من خلال دراستها لتاريخ المجتمعات، أنّها قائمة على صراع طبقي نتيجة تضارب المصالح الاقتصادية والاجتماعية، فكل مجتمع فيه طبقات يؤدي إلى قيام ثورات تسعى للقضاء على النظام الطبقي.

إن هذا الصراع يتجاذب فيه طرفان مستغل ومستغل، الأول يحاول دائما المحافظة على مصالحه وامتيازاته، والثاني يسعى لكي ينتزع جزءا من حقوقه فيستخدم الصراع بينهما، وعندما يتعادل ميزان القوة يحل نظام اجتماعي واقتصادي جديد يتنازل فيه المستغل عن بعض امتيازاته للمستغل، ولكنه يحمل في طياته تناقضات النظام السابق مما يؤدي الى نشوب الصراع ثانية، وقيام نظام جديد وهكذا، وانطلاقا من هذه المعطيات تفسر الماركسية حركة التاريخ فحركة

التاريخ لا تسير في خط مستقيم ، بل في خط منكسر، وما يبطئ هذه الحركة هو الصراع الاجتماعي، فهناك طبقة أولى تسعى لإبطاء حركة التاريخ للحفاظ على مصالحها، وهناك طبقة ثانية تسعى لإسراع حركة التاريخ، والقضاء على النظام الطبقي. وبظهور نظام جديد نعتقد أننا قضينا على الصراع، الا أنه تغيير جزئي يدفع الى نشوب الصراع ثانية، وبالتالي دراسة هذه التحولات التي تصاحب فترة ما تدفع لحركة التاريخ التي تسعى لها الماركسية .

3-2- قاعـدة المادية الجدلية : المعروف أنّ مؤرخي الفلسفة ينظرون اليها بنظرتين، الأولى يصفونها بالمثالية وهي التي تنظر للوجود المادي على أنه جاء بعد الوجود الفكري، يعني أن الفكر أسبق في الوجود من المادة، في حين تؤكد الفلسفة المادية على الاتجاه الآخر وهو أسبقية المادة على الفكر، وهي التي تصنعه، ومن هنا صنف الماركسية ضمن الاتجاه الثاني المادي، والتي ترى أن المجتمع مشروط بوسائل إنتاجه، فإذا كان تين قد حصر العوامل المؤثرة في الأدب في ثلثه المعروف، فإن الماركسية تضيف عاملاً رابعاً وهو أساليب أو وسائل الإنتاج .

إنّ المادية الجدلية تقوم على أساس أنّ الأفراد في المجتمع تربطهم علاقات إنتاجية، وهذه العلاقات هي ما تشكل البنية الاقتصادية للمجتمع، وهي الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه بنية قانونية وسياسية عليا تتوافق معها أشكال محدودة من الوعي الاجتماعي، ويتحكم نمط الإنتاج في الحياة المادية بحركة الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية عموماً⁽¹¹⁾ أي أنّ البناء الاقتصادي تحكمه مجموعة من العلاقات الانتاجية.

وفوق هذا البناء نجد بناء آخر هو البناء الفوقي الذي تحكمه علاقات فكرية، وقد صنف الأدب ضمن البناء الفوقي، لأنه جزء من البناء الفكري، وأيّ تغيير في البناء التحتي يتبعه تغيير في البناء الفوقي، ومعنى ذلك أنه كلما تغيرت الأوضاع الاجتماعية (البناء التحتي) تغير البناء الفوقي بما فيه الأدب والفكر .

اذن " فليس البناء العلوي أو الفوقي المكوّن من القانون والفن يتطور على نحو ذاتي بل انه مرتبط في تطوره بالناحية التاريخية للمجتمع التي تمتد منحنياته على حسب تطوير البناء الاقتصادي"⁽¹²⁾. ومن ثم فإن الأدب حسب المنظور الماركسي خاضع للتغيير اذا قامت الثورة وأطاحت بالبنى الأساسية للمجتمع ليتحول الى أدب جديد يتغير على طبقة اجتماعية جديدة، وفي ضوء هذه النظرة قد أعاد الماركسيون النظر في أمرين اثنين هما : طبيعة الأدب وغايته .⁽¹³⁾

بالنسبة لطبيعة الأدب فالماركسية تؤكد على أولوية المادة، والوجود هو الذي يقرر الشعور، ومن هذا المعتقد فإن الأساس الابداعي لعمل الفنان يتلخص في أن كل عمله انعكاس للعالم الذي يعيش فيه، ورأى الماركسيون أن الأدب انعكاس للواقع شاء ذلك الأديب أم لم يشأ، وفكرة الانعكاس هذه تبطل في نظرهم الكثير من المفهومات النقدية السائدة قبل ذلك، فأحببت فكرة الالهام التي نادى بها أفلاطون وأرسطو، ونقاد الرومانسية وغيرهم .

أما عن غاية الأدب فهي عندهم وثيقة الصلة بموقف المبدع من قضية الصراع الطبقي الذي يسود المجتمع، فإذا كان المجتمع يشهد صراعا طبقيًا حدد هدف الأدب و غايته بنصرة إحدى الطبقتين أو التعبير عن أحدهما، وإذا كان المجتمع يشهد تحولًا نتقلد فيه الطبقة العمالية -مثلا-مقاليد السلطة، فإن غاية الأدب في هذا الحال هي الفاع عن مكاسب الطبقة الجديدة ⁽¹⁴⁾.

وانطلاقا من الفكر الماركسي وبناء على ما سبق فقد أضافت الماركسية عاملا رابعا له دوره في التأثير على الأدب، وهو وسائل الانتاج التي تراها تفرض بنيات الأدب الأساسية، وهذا ما يفسر تطور المجتمعات من جيل لآخر، وما دامت القوى المنتجة في تغير مستمر فإن المجتمعات تظل في تحول مستمر، وبالتالي فأى منهج اجتماعي في النقد الأدبي المرتكز أساسا على الفلسفة الماركسية لا ينصب اهتمامه نحو تقدير الأفكار والموضوعات بالعودة الى العلاقات الاجتماعية الصادرة عنها فقط ، بل يهتم كذلك بمدى اسهامه في بعث حركة التاريخ والعمل على تنشيطها .

4- نظرية الانعكاس :

خلافا للنظريات الأدبية التي سبقتها (أي نظرية المحاكاة ، التعبير ، الخلق) فإن نظرية الانعكاس استندت في تفسيرها الأدب و تديد طبيعته ووظيفته الى الفلسفة الماركسية (المادية الجدلية) التي كما قد أشرنا إليها سابقا ، ولكن لا بأس أن نذكر بإطارها العام، فالمادية الجدلية تقوم باعتبارها الأساس الفلسفي لنظرية الانعكاس على مفهوم يتلخص في أولوية البناء التحتي الذي يمثل مجمل علاقات الانتاج على البناء الفوقي الذي يمثل مجمل القيم الفكرية والسياسية والاجتماعية....، والعلاقة الموجودة بين البناءين هي علاقة حتمية بمعنى أن اشكال البناء التحتي تنعكس في البناء الفوقي، والتغيير في البناء الأول يؤدي الى تغيير في الثاني.

وبناء على الفكر المادي فإنّ أيّ تغيير في علاقات الانتاج يتبعه تغيير في المثل الفكرية، وهو ما يؤدي بالضرورة الى تغيير في الأشكال الأدبية من حيث الموضوعات والأساليب والأهداف ، وهذا يعني أنّ الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي⁽¹⁵⁾.

هذا عن الأساس الفلسفي الذي تقوم عليه نظرية الانعكاس، ولكن دون أن نغفل أنّها تقوم كذلك على علم الاجتماع، بالنسبة الى علم الاجتماع الأدبي أو Sociologie de la littérature يهتم بدراسة العلاقة القائمة بين الأدب والمجتمع، وتخصيص أحد فروع علم الاجتماع لدراسة الظاهرة الأدبية يدل دلالة صريحة على دور الأدب في التعبير عن قضايا المجتمع أو فنقل اتخاذ الأدب كأداة لرصد الواقع الاجتماعي.

إنّ علم الاجتماع الأدبي هو أحد ميادين علم اجتماع يقوم على أساس دراسة العمل الأدبي ومبدعه وطبقته الاجتماعية ، وقرائه واتجاهاتهم، كما يهتم برصد طبيعة العلاقة بين مضمون العمل الأدبي ومجموع الوقائع الاجتماعية أو الثقافية في مرحلة تاريخية محددة .

إن دراسة العمل الأدبي بوصفه ظاهرة اجتماعية مثلها مثل الظواهر الاجتماعية الأخرى هي دراسة لاشك ستكون فعالة في فهم النص الأدبي، وكشف بعض الجوانب المتعلقة بالحياة الاجتماعية، مما يسهل على الدارسين والنقاد فهم الكثير من الأعمال الأدبية من خلال ربطها بمحيطها هذا من جهة ومن جهة أخرى هذه الدراسات ستفيد علماء الاجتماع في تأكيد نظرياتهم .

إن هناك مجالات متعددة لهذا الفرع المعرفي أو وجود مستويات متعددة له منها ما يهتم بتفسير نشأة الأدب ووظيفته باعتباره شكلا جماليا ذات دلالات اجتماعية ، ومنها ما يهتم بالبحث عن صورة المجتمع داخل الأعمال الأدبية، ومنها ما يهتم ببحث الأدب على أنّه سلعة أو انتاج، والأدباء ما هم سوى منتجين والقراء مستهلكين⁽¹⁶⁾.

لقد أثر علم الاجتماع الأدبي في الحركة الأدبية النقدية بحيث اتسع نطاقه، وانقسم بدوره الى فروع متعددة : علم اجتماع القراءة، علم اجتماع النص، علم اجتماع الأجناس الأدبية، علم اجتماع الراوية على نحو ما ظهر عند لوسيان غولدمان.

فنظرية الانعكاس إذن تقوم على علم الاجتماع، بحيث أنّ تطور الأبحاث والنظريات في هذا الأخير سينعكس حتما على الدراسات الأدبية باعتبار الأدب على علاقة وثيقة بالواقع الاجتماعي، هذا كما تقوم كذلك على الفلسفة المادية، ولعلّ هذا ما جعلها تنتج منهجاً قائم على الفروض والاستقراء ودراسة تاريخ الفنون العالمية، وحاولت أن تفسر الظاهرة الأدبية باعتبارها جزءاً من الظاهرة الثقافية عامة، مع الاهتمام بخصوصيتها واستقلاليتها النسبية عن باقي أنساق المعرفة والعلوم الإنسانية⁽¹⁷⁾

5- سوسيولوجيا الخطاب الأدبي :

ظهرت في القرن العشرين جهود كثيرة في مجال علم الاجتماع الأدبي شكلت تطورات مهمة للنقد الاجتماعي تأسيساً على هذا الموروث التاريخي الذي خلفه كارل ماركس وغيره من الفلاسفة والعلماء .

وقد برز جورج لوكانش (1885-1971) منظراً لهذا الاتجاه " فقد مزج بين النظرة التاريخية للأدب والنظرة الاجتماعية في كتابه الذي لا يخلو من دلالة على هذا المنحى وهو كتاب " الرواية التاريخية " فالسلوك الذي يتجلى لدى شخصيات الرواية التاريخية مثلاً يصعب فهمه بمعرفتنا للمؤلف وحده، وإنما لابد من معرفة السلوك الاجتماعي الى جانب ذلك، وهذا يتطلب بطبيعة الحال دراسة الزمن التاريخي الذي يصوره "⁽¹⁸⁾ .

لقد قام لوكانش بدراسة وتحليل العلاقة بين المجتمع والأدب، باعتباره انعكاساً وتمثيلاً للحياة، وقدم دراسات ربط فيها بين نشأة الجنس الأدبي وازدهاره، وبين طبيعة الحياة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما تسمى "سوسيولوجيا الأجناس الأدبية" تناول فيها نشأة الرواية المقترنة بنشأة حركة الرأسمالية العالمية .

وقد خصص جورج لوكانش الكثير من أعماله حول الفكر والأدب والفن، مستنداً الى ربط وثيق بين الذوق الكلاسيكي الذي لا يتوقف عن ابداء إعجابه به، وبين العقيدة الماركسية التي بقي مخلصاً لها طوال حياته، فكلماته وتنظيراته الأدبية لا تزال من المراجع الأساسية للأدباء والنقاد .

ثم جاء بعده لوسيان غولدمان وجدّد النظرة الماركسية للأدب عن طريق المزج بين البنيوية Structuralisme التي شاعت في الدراسات الأنثروبولوجية عند شتراوس والمادية التاريخية لدى الماركسيين، وتأثر غولدمان بجورج لوكانش تأثراً

كبيراً، وقد عبّر عن آرائه وأفكاره في كتب مختلفة أهمها "سوسيولوجيا الرواية" أي علم اجتماع الرواية، وقد اعتمد غولدمان على جملة من المبادئ أهمها :

الأدب ليس انتاجاً فردياً، ولا يعامل باعتباره تعبيراً عن وجهة نظر شخصية، بل هو تعبير عن الوعي الطبقي للمجتمعات، بمعنى أن الأديب عندما يكتب فإنه يعبر عن وجهة نظر تتجسد فيها عمليات الضمير الاجتماعي، فجودة الأديب وقبال القراء على أدبه تعود الى قوته في تجسيد المنظور الاجتماعي .

العمل الأدبي يتميز ببنية دلالية كلية، وهي ما يفهم من العمل الأدبي في اجماليه، وهذه البنية تتكون من المقابل المفهومي، والمقابل الفكري للضمير الاجتماعي لدى الأديب.

النص الأدبي عند غولدمان بنية متولدة عن بنية أشمل وأعمق هي البنية الاجتماعية للجماعة أو الطبقة التي يمثلها المبدع، ولهذا لا بد من دراسة العمل الأدبي للكشف عن مدى تجسيده للبنية الفكرية للطبقة الاجتماعية التي يعبر عنها.

ونقطة الاتصال بين البنية الدلالية في العمل الأدبي والوعي الاجتماعي هي أهم الحلقات عند غولدمان، والتي يطلق عليها مصطلح "رؤية العالم" فكل عمل أدبي يتضمن رؤية للعالم .

والفارق بين غولدمان والبنويين أن هؤلاء ن أمثال شتراوس ورولان بارث يدرسون الأثر الفني (النص) من حيث هو بنية داخلية مستقلة عما عداها، مثلما تدرس الكلمة الواحدة في علم الصرف من حيث بنيتها ، وهل هي اسم فاعل، أو اسم مفعول، أو اسم مكان، أما عند غولدمان فهي بنية نسبية يتوقف اكتمالها على تحقيق الانسجام بينها وبين الأعمال الأدبية الأخرى ، تماماً مثل سلوك الفرد لا يتضح خيره من شره الا من خلال وضعه في السياق الذي يتطلبه سلوك الفرد⁽¹⁹⁾.

والجدير بالذكر أن سبب الاهتمام بالرواية في معظم النظريات الاجتماعية الحديثة للأدب وعدم التركيز على النصوص الشعرية، ليس لعدم عناية هؤلاء النقاد بالنص الشعري واهتمامهم له، وإنما قد يعود ذلك الى أن الرواية تعكس القضايا الاجتماعية وتجسد تلك الظواهر والصراعات في مختلف الشخصيات، وبالتالي فهي أكثر مجالا للمقاربات الاجتماعية للأدب.

ثم حدث تطور في فروع علم الاجتماع الأدبي، فأدى الى نشوء علم اجتماع النص الذي يعتمد على اللغة بوصفها واسطة الأدب والحياة فهي مركز التحليل النقدي في الأعمال الأدبية .

وتمكن هذا المنهج من تجاوز فكرة "رؤية العالم " لغولدماناذ ليست سوى فكرة ذهنية فلسفية، فعلم اجتماع النص تصور لغوي يرتبط بجذور الظاهرة الأدبية، وان كانت المناهج الاجتماعية السابقة ركزت في الغالب على الجانب المضموني في العمل الأدبي على حساب الشكل ، فان منهج سوسيولوجيا النص الأدبي الذي يمثله زيمما(1946) حاول الافادة من الأبحاث اللسانية والبنوية المعاصرة، ويهتم ببنية النص اللغوية والرمزية بجانب المحتوى الذي هو متجسد في هذه الوحدات اللغوية، وهكذا " يصير زيمما على الانطلاق من الانجاز الهام الذي حققه النقد الأدبي في نصف القرن الماضي أو أكثر ، ألا وهو أهمية النص، غير أنه يقدم مفهوما مختلفا للنص، لا باعتباره بنية لغوية مغلقة ينبغي البحث عن تجريدها المثالي، وانما ككيان ملهوس وحي يعيش حياته عبر قوانينه الخاصة، ولكن يحل في هذه القوانين خصائص الحياة الاجتماعية التي يعيش في اطارها ويدع ويتلقى"(20).

ومجمل القول أنّ الاقبال على سوسيولوجيا الأدب ليس غرضه اثراء حقل الاجتماع و تبرير فرضياته، ولكنه بحث في صميم العملية الأدبية باستقطابه زواياها الثلاث: المؤلف ، الناشر، القارئ ، ووصف رحلة الخطاب الأدبي عبر هذه القنوات، قبل استقراره في حقل القراءة، في حقل مميز .

كلّ هذه اضاءات تطل على الظاهرة الأدبية ابداعا ووظيفة وطبيعة ، وعلى العوامل المؤثرة في تطور الأدب و في ظهور أنواع أدبية جديدة، وفي الكتاب وانتماءاتهم ومن خلال الاهتمام بمسألة الذوق العام ونوعية القراء ونوع استجاباتهم للأعمال الأدبية ، وبأثر التقدم الصناعي والتكنولوجي والانتاج بالجملة وبدور الناشرين، وهي التي تعطي لسوسيولوجيا الأدب مشروعية الوجود كرافد علمي لا يفسر الأدب بقدر ما يعمل على موضعة الظاهرة الأدبية في اطارها المتشابك(21)

الهوامش و الاحالات :

- 1- ينظر- ابراهيم محمود خليل - النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك - دار المسيرة - الأردن - ط 1-2005 - ص 66.
- 2- ينظر- شكري عزيز ماضي - محاضرات في نظرية الأدب - دار نشر للتوزيع - الجزائر - ط 1-1984 - ص 14.
- 3- ينظر- المرجع نفسه - ص 25.
- 4- ينظر- المرجع نفسه - ص 126.
- 5- ينظر- ابراهيم محمود خليل - النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك - ص 67.
- 6- ينظر - شكري عزيز ماضي - محاضرات في نظرية الأدب - ص 126.
- 7- ابراهيم محمود خليل - النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك - ص 67.
- 8- ينظر - شكري عزيز ماضي - محاضرات في نظرية الأدب - ص 64.
- 9- المرجع نفسه - ص 63.
- 10- ميجاناروييلي - سعد البازغي - دليل الناقد الأدبي - المركز الثقافي العربي - المغرب - ط 1-2003 - ص 223.
- 11- ينظر- المرجع نفسه - ص 323-324.
- 12- رجاء عيد - فلسفة الالتزام بين النظرية و التطبيق - منشأة المعارف - الاسكندرية - دط - د ت - ص 131.
- 13- ينظر - محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث - نهضة مصر - دط - 2004 - ص 28.
- 14- ينظر- ابراهيم محمود خليل - النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك - ص 68.
- 15- ينظر - شكري عزيز ماضي - محاضرات في نظرية الأدب - ص 126.
- 16- ينظر- المرجع نفسه - ص 125 - ص 130.
- 17- ينظر- المرجع نفسه - ص 66.
- 18- ابراهيم محمود خليل - النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك - ص 69.
- 19- ينظر- المرجع نفسه - ص 71.
- 20- بيير زيمبا - النقد الاجتماعي : نحو علم اجتماع للنص الأدبي - تر : عايدة لطفي - دار الفكر - مصر - ط 1 - 1991 - ص 7 - (نسخة الكترونية)

21- ينظر - حبيمونسي - نظريات القراءة في النقد المعاصر - منشورات دار الأديب - الجزائر - د ط - 2007 - ص 29.

قائمة المراجع :

- 1- إبراهيم محمود خليل - النقد الأدبي الحديث من المحاكاة الى التفكيك - دار المسيرة - الأردن - ط 1- 2005 .
- 2- بدير زيمة - النقد الاجتماعي : نحو علم اجتماع للنص الأدبي - تر : عايدة لطفي - دار الفكر - مصر - ط 1 - 1991 - (نسخة الكترونية)
- 3- حبيمونسي - نظريات القراءة في النقد المعاصر - منشورات دار الأديب - الجزائر - د ط - 2007.
- 4- رجاء عيد - فلسفة الالتزام بين النظرية و التطبيق - منشأة المعارف - الاسكندرية - د ط - د ت
- 5- شكري عزيز ماضي - محاضرات في نظرية الأدب - دار نشر للتوزيع - الجزائر - ط 1 - 1984.
- 6- محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث - نهضة مصر - د ط - 2004
- 7- ميجان الرويلي - سعد البازغي - دليل الناقد الأدبي - المركز الثقافي العربي - المغرب - ط 1.

